اليوم الوطني.. رؤى تاريخية (١ – ٢)

■ التاريخ الذي يمثل مدوّنة الفعل البشري المتعدد، والحامل الأبرز لكل العطاءات السياسية والإنسانية يحتفي دوماً بكل شيء، ولكنه يكون أكثر احتفاءً حين تكون أحداثه بحجم الإنجاز السعودي دولة ووحدة وعطاء، إنها واحدة من أنجح التجارب السياسية في القرن العشرين. كل هذا الإنجاز وهذا الخروج بأرض مهملة إلى واحدة من أكثر دول العالم حيوية وفاعلية، أمر سيشكّل أبرز موضوعات التاريخ حيوية واتساعاً. هنا يتحدث مجموعة من الأساتذة والباحثين في التاريخ العربي عن اليوم الوطني من وجهات وتصورات متعددة، تقوم على معرفة بالتحولات التاريخية وتسعى لإيجاد مقاربة في اليوم الوطني عن الكيان العظيم الذي سيظل يمثل قضية ودرساً تاريخياً ملؤه الحيوية والعطاء.

فجر في الرياض

أ.د. سعيد بن عمر آل عمر *

■ يختلف اليوم الوطني ويتميز في بلادنا المملكة العربية السعودية عن غيره من البلدان العربية الأخرى، فبينما اليوم الوطني في كثير من البلاد العربية هو يوم الاستقلال ورحيل الأجنبي عن بلاد ووطن وشعب قائم ومعروف بحدوده السياسية ومجتمع موحد، نجد أن اليوم الوطني في بلادنا يتميز عن غيره بأنه نتاج كفاح ونضال ضد التمزق والتشتت، فلم يكن وطننا في حينه ذا حدود جغرافية معروفة ومجتمع قائم موحد كغيره من البلدان. فقد كانت بلادنا عبارة عن أقاليم صحراوية بشكل عام وكانت المدن والحواضر تشكل وحدات سياسية منفصلة بعضها عن بعض. ومن هذا التجزؤ ظهرت الفردية لسياسية التي أرادتها كل من هذه المدن والأقاليم التي كانت بحد ذاتها تشكل دولة مستقلة في الصحراء أو الجبل. ومن عوامل هذا التفكك قيام الثورات القبلية في البلاد ضد الحكومات المحلية في نجد والحجاز وعسير والأحساء وحائل. تلك الثورات التي كانت تؤثر على الوضع الاقتصادي والاجتماعي في البلاد مع تدني مستوى هذا الاقتصاد وحياة الفقر التي كان يعيشها المجتمع. وذلك لما يعتري الحركات من شلل وما يسود البلاد من جو الفوضى وأعمال النهب والسلب وانعدام الأمن نتيجة لضعف السلطات المحلية في هذه الأقاليم. نعم إنه الأمن المفقود وفي سماء هذه الأجواء المظلمة برز فجر جديد قاده أسد الجزيرة العربية الملك عبدالعزيز منطلقاً من الكويت ليضيء المصباح في الرياض متكئاً - رحمه الله - على ما لأسرته من إرث تاريخي وسمعة حسنة وما يحمل ذلك القائد من سمات القيادة وفضائل الريادة قدرها الأصدقاء والأعداء على السواء. وانعكست هذه الفضائل والقيم الإسلامية على الدولة الناشئة كما ارتكزت عليها في عهد الآباء والأجداد. وما أن صنع من إمارته في نجد نموذج الإمارة المتمتعة بالأمن الراسخ والاستقرار ومن نفسه نموذج الحاكم العادل، حتى بدأ يتطلع إلى لم شمل بقية الأقاليم الأخرى إلى إمارته في الوقت الذي بادله ذات الشعور في الوحدة والاستقرار والتمتع بالأمن الخيرون من أبناء الأقاليم الأخرى الذين كانوا يفتقدون إلى ما يتمتع به أبناء تلك الإمارة النموذج في قلب الجزيرة العربية من أمن وأمان حيث راسله أهالي الأحساء ثم أهالي بيشة فأعيان الخرمة وتقدم الموحد تؤازره قوته بعد توفيق الله وإيمانه ورغبة الناس للانضمام لدولته للتمتع بالأمن والطمأنينة لما تمتع به من خصال الحاكم المسلم القوي بإيمانه وكريم خُلقه وعدله، وهكذا واصل نضاله حتى نظم أقاليم هذا الوطن في عقد فريد وآخى بين شعوب هذه الأقاليم المتناثرة في وحدة سياسية كانت معجزة العصر الحديث على الإطلاق. عند ذلك ترجل الفارس عن فرسه وأعلنها سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م دولة واحدة باسم المملكة العربية السعودية وليسعد بعد ذلك هذا المجتمع وقيادته الرشيدة بكسب جديد وهو اكتشاف النفط الذي أضحت منه المملكة النموذج للدولة العصرية.

*جامعة الملك فيصل

أيام وطنية

سعيد بن محمد بن مفرح *

ش■ لدينا في المملكة حقيقة أكثر من يوم وطني، فيوم فتح الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - الرياض، كان ولا يزال يوماً تاريخياً، إذ كانت تلك الخطوة هي اللبنة الأولى في بناء هذا الكيان الشامخ، وحين استرد - يرحمه الله - الأحساء من العثمانيين كان هناك يوم تاريخي آخر لا يقل أهمية عن فتح الرياض، فلقد كانت الأحساء هي البوابة التي حصل من خلالها على الاعتراف الدولي بوجوده وكيانه، أما حين ضم الملك عبدالعزيز الحجاز بما تحويه من أماكن تهفو إليها أفئدة المسلمين في كل مكان، فلقد منح ذلك الإنجاز بلادنا مكانة روحية عظيمة، جعل من ضمها إنجازاً تاريخياً لا يمكن تجاوزه، وعليه فلدينا أيام وطنية وليس يوماً واحداً، ولكل منها ذكراه وأهميته، لكن الأول من الميزان جاء ليجعل كل هذه الأيام يوماً وطنياً واحداً، نستلهم فيه كل عام عظمة ما أنجز ونتطلع دون شك للمزيد.

إن بعض دول العالم تحتفل اليوم بأعياد الاستقلال، في حين أن يومنا الوطني يأتي سنوياً لترسيخ مفهوم الوحدة التي أرسى دعائمها المؤسس، وبعضها الآخر يحتفل كل عام بأعياد الثورة والانقلاب وخلافه، فيما نحن نتذكر في يومنا الوطني كيف عمل الآباء والأجداد على قمع الفتن والقضاء على الثورات والثأرات.

في هذا العام تحديداً يأتي اليوم الوطني استثنائياً، فالمواطنون يستقبلونه بمشاعر مختلطة بين الحزن والأسى من جانب وبين الفرح والأمل من جانب آخر، مشاعر الحزن لأنه يأتي بعد فترة وجيزة من فقد الوطن لقائد مسيرته فقيد الأمة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز يرحمه الله، في المقابل فهو يأمل أن يرى مستقبلاً واعداً بدأت تباشيره بالفعل في العهد الجديد عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز - يحفظه الله -، ثم إن هنالك أمراً أحسنت القيادة اتخاذه وهو اعتبار اليوم الوطني يوم إجازة رسمية، فمن الملاحظ اهتمام المواطنين المتزايد هذا العام باليوم الوطني، إذ أصبح له في نفس المواطن معنى وهدف، وهو ما كان غائباً في الأعوام السابقة.

*محاضر بقسم التاريخ - كلية المعلمين في بيشة

حضارة المدنية والتطوير

د. صالح عون الغامدي *

■ عندما نكتب عن شخصية الملك عبدالعزيز بصفة الشمولية أو الانتقائية فإننا نجد أنفسنا أمام قامة تحمل في طياتها ابعاداً ذات مدلولات تكاملية. فلم تعد الكتابة عنه في شتى الميادين كتابة عن شخص أو ملك أو قائد بقدر ما هي كتابة عن تاريخ أمة وشعب وسيرة ومنهج.

لقد امتلك زمام مبادرات عدة فكان المحارب الحكيم والمسالم القوي في تمسكه باسلامه واعتزازه بعروبته ودفاعه عن مظاهر التطور والرقي وعن المنهج الثابت المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فتحكم في عواطفه وأقواله وأفعاله، يحب الحضارة في حدود المعقول والمدنية في حدود المقبول، يقول - يرحمه الله -: «يقول كثير من المسلمين يجب أن نتقدم في مضمار المدنية والحضارة.. وأن تأخرنا ناشىء عن عدم سيرنا في هذا الطريق، وهذا ادعاء باطل، فالإسلام قد أمرنا أن نأخذ ما يفيدنا ويقوينا على شرط أن لا يفسد علينا عقائدنا وشيمنا».

ولعلنا نستشف واقعاً مفروضاً يحلق بنا في آفاق أبعد وأشمل يتمثل في أن المؤسس يحرص على الاستفادة من اللب لا القشور ومن التقدم لا التخلف ومن المدنية لا التقوقع، فهو يؤكد بأن الإسلام دين شمولية ولا بد من الاستفادة من كل هذه الإيجابيات مع عدم المساس بالثوابت والمنهج الإسلامي القويم الذي هو طريق النجاة والشموخ والوحدة المعبّرة عن القوة مع الإشادة بدعوته إلى الاتفاق والاعتصام بحبل الدين، والسعي لما يحفظ قوة المسلمين ضد كل أعداء الإسلام والسلام.

إن منطق المؤسس يقوم على التوازن بين القول والفعل فهو يفعل ثم يؤكد أفعاله بالأقوال، وأحياناً يدعها تؤكد نفسها وتفرض ذاتها وتثبت جذورها وتعطي أُكلها، وقد فرض الملك عبدالعزيز رأيه صراحة عندما قال: «يجب أن يعتبر المسلمون من حالتهم اليوم فإنهم لم يصلوا إلى ما هم عليه الآن إلا من كثرة أقوالهم وعدم أفعالهم.. إلا أن العمل أساس النجاح.. وان العقيدة الصحيحة هي أساس الفلاح».

لقد اهتم بالرعية وحرص على أن يعيشوا كرماء في دولة أساسها العدل ودستورها القرآن ومنهجها التقدم وديدنها المساواة، حتى أننا وغيرنا عندما نريد استيعاب توجيهاته أو خطاباته أو أوامره نصاب بالذهول لقدرته الهائلة على مسايرة العصر والأخذ بكل جديد، لقد كان بحق أشمل من الديمقراطية وأكبر من الشعارات البراقة يدعو الكل إلى المشاركة الفاعلة في بناء الوطن - وطن الكل - كما حرص على عدم إتاحة الفرصة لاعتداء القوي على الضعيف، فأمام عدالته ونزاهته الكل سواسية، لقد فتح باب الشكاوى ضد الظلم وحتى يضمن وصولها إليه هدد رجال البريد في عدم إيصالها، وزيادة في الحرص كتب إلى كل رعيته كتاباً في غاية الأهمية «على كل فرد من رعيتنا يحس أن ظلماً وقع عليه أن يتقدم إلينا بالشكوى.. وأن يبعث بها بطريق البرق أو البريد المجاني على نفقتنا، وعلى كل موظف بالبريد أو البرق أن يتقبل الشكاوى من رعيتنا ولو كانت موجهة ضد أولادي أو أحفادي أو أهل بيتي، وليعلم كل موظف يحاول أن يثني أحد أفراد الرعية عن تقديم شكواه مهما كانت قيمتها، أو حاول التأثير عليه ليخفف من لهجتها أننا سنوقع عليه العقاب الشديد.. لا أريد أن أسمع عن مظلوم، ولا أريد أن يحملني الله وزر ظلم أحد أو عدم نجدة مظلوم أو استخلاص حق مهضوم».

رحم الله الملك عبدالعزيز، وحفظ لهذه البلاد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز الرجل الذي يضرب يوماً بعد يوم روائع الأمثلة في السعي بهذه الدولة إلى مصاف الدول الكبرى، والحرص على الرقي بشعبه في أسلوب مثالي، ومبادئ إسلامية حقيقية تتجاوز أية دعايات هوجاء تحمل في طياتها إيجابيات وسلبيات أكثر، إن سياسة الباب المفتوح لخادم الحرمين الشريفين وولي عهده لسياسة حكيمة ومثالية ورائعة.

*أستاذ الدراسات العليا بجامعة الملك خالد

اليوم الوطني.. منهج التأسيس والوحدة

د. لطيفة بنت عبدالعزيز السلوم

■ لقد استطاع الملك عبدالعزيز تأسيس دولة راسخة القواعد شامخة البنيان، تسير وفق سياسة ثابتة ومستقرة. مستمدة من كتاب الله - عزّ وجل - وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح. لا تحيد ولا تنحاز إلا للحق والخير، وتوج هذا العمل العلاق الذي حقق فيه من الإنجاز ما يشبه الإعجاز بوحدة في التسمية، فجاءت التسمية مطابقة للمسمى.

فمملكة الحجاز ونجد وملحقاتها تسمية لم تكن تنطبق على هذه الوحدة السياسية التي يمثلها هذا الكيان العظيم، ولا تعبّر عن تضامن أبناء هذه البلاد والتفافهم حول قائدهم في سبيل خدمة الدين والوطن، وإنما تعني مسميات جغرافية لبعض أقاليم المنطقة والتي أصبحت تشكل وحدة متكاملة يصعب التفريق بينها، أو اختيار أحدها ليكون اسماً للدولة.

ومن هذا المنطلق الذي تتطلع إليه جميع شعوب المنطقة عقد اجتماع بالطائف في ١٢ من جمادى الأولى ١٣٥١هـ/ ١٣ من سبتمبر (أيلول) ١٩٣٢م حضره العديد من المواطنين من مختلف مناطق الدولة، وبعد البحث والمناقشة حول موضوع توحيد التسمية رفع المجتمعون خطاباً إلى الملك عبدالعزيز يتضمن طلب التكرّم بالموافقة على رغبة المواطنين بتحويل اسم «المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها» إلى «المملكة العربية السعودية»، وكذلك إصدار نظام خاص بالحكم وتوارث العرش؛ إيماناً من المجتمعين بأهمية هذا الأمر في داخل وخارج البلاد.

ولقيت هذه الفكرة قبولاً لدى أبناء هذه البلاد فتوالت البرقيات على الملك عبدالعزيز من جهات مختلفة تؤيد هذا التوحيد؛ لكونه أكثر انطباقاً على الواقع؛ لاقترانه بالوحدة المتكاملة بين أبناء الدولة.

ونزولاً على رغبة الشعب، ورغبة في توحيد أجزاء المملكة، واستجابة لقرار علماء ووجهاء البلاد صدر أمر ملكي رقم ٢٧١٦ في ١٧ من جمادى الأولى ١٣٥١هـ/١٨من سبتمبر (أيلول) ١٩٣٢م بتحويل اسم «مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها» إلى اسم «المملكة العربية السعودية»، ويكون لقب الملك «ملك المملكة العربية السعودية»، اعتباراً من تاريخ إعلانه.

غير أن هذا التحويل لم يكن له أي تأثير في المعاهدات والاتفاقيات والالتزامات الدولية، ولا في المقاولات والعهود المبرمة قبل صدوره، بل بقيت كما كانت عليه. كما أن ذلك لم يؤثّر في الأنظمة والتعليمات والأوامر الملكية الصادرة قبل ذلك التاريخ. أما تشكيلات الحكومة فقد ظلت كما كانت عليه ريثما يتم وضع تشكيلات جديدة على أساس هذا التوحيد. وبناء على ذلك تم تكليف مجلس الوكلاء بوضع مشروع نظام أساسي للمملكة ونظام لتوارث العرش.

واختير يوم الخميس الموافق ٢١ من جمادى الأولى لعام ١٣٥١هـ/ ٢٣ من سبتمبر (أيلول) الموافق الأول من برج الميزان يوماً وطنياً للمملكة العربية السعودية لتتويج ذلك التاريخ الذي تم فيه توحيد مناطق الدولة تحت اسم واحد.

وفي هذا اليوم التاريخي المجيد عبّر الجميع عن فرحتهم وسرورهم بهذا الحدث المهم، فخطب الخطباء وكتب الكُتاب، ونظم الشعر للتعبير عن شعورهم بمناسبة هذه الوحدة العظيمة.

ولم يكن صدور هذا الأمر الملكي بهذه التسمية وما تعنيه سوى تقرير لأمر قائم، التفت فيه القلوب حول المؤسس العظيم بعد أن استجابت لدعوته إلى الجهاد فسارت معه قرابة ثلث قرن تعمل بإخلاص تحت قيادته، وتلبي نداءه حتى ارتفعت راية التوحيد مظللة جميع أنحاء المملكة بأمان يندر مثيله، واستقرار يظل شاهداً على حنكة القيادة وحكمة السياسة.

بعد ذلك اتجه قائد المسيرة لمحاربة الفقر والمرض والجهل، أشد الآفات فتكاً بالإنسان، فكان تحدياً كبيراً في ظل الامكانات الموجودة والظروف المحيطة في ذلك الوقت. وبعون من الله وتوفيقه استطاع في سنين قليلة تحقيق الكثير من الإنجازات التي كانت مدعاة للإعجاب والفخر. فكان هذا اليوم ذكرى غالية، وعلامة بارزة ذات دلالة دينية وتاريخية ووطنية، تحكي قصة خالدة، وبطولة رائعة، منذ أن توحد الوطن على يد قائد المسيرة الملك عبدالعزيز.

ولهذا اليوم - كما يقول الأمير محمد بن فهد، أمير المنطقة الشرقية - لون متميز يختلف عن مثيله في العديد من دول العالم، لاتصاله الروحي بالعقيدة الإسلامية، وما تتضمنه من أسس فكرية وأخلاقية تعمل على تنمية الفرد والجماعة وفق أسس ومبادئ لم تصل إليها حتى أكبر الأمم المتقدمة في العهد الحاضر الذي تضاربت فيه الأفكار والمبادئ.

يستحق الملك عبدالعزيز عن جدارة شهادة كبار سياسيي ومفكري العالم عندما نعتوه بأنه أحد عظماء القرن العشرين، نظراً للجهد الجبار الذي بذله في توحيد هذا الكيان الكبير المترامي الأطراف تحت راية واحدة، وعلم واحد، حاملاً أعظم عبارة شهدها البيان «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

لقد اختار الملك عبدالعزيز عَلَم وشعار البلاد المكون من:

- لا إله إلا الله محمد رسول الله
- النخلة والخضرة
- السيف

وهذا الاختيار لم يكن وليد المصادفة، وإنما يدل كما يقول معالي الدكتور عبدالله التركي، عن أصالة فكره السياسي وتميزه واستقلاله و«لا إله إلا الله محمد رسول الله» تلخيص للمنهج - منهج الشريعة الإسلامية - وتحديد لطبيعة النظام وإعلان عن الوجهة. والنخلة والخضرة: تصوير لمقاصد الدولة في تحقيق الخير والنماء والازدهار. وفي السيف فكرتان: فكرة القوة العسكرية الرادعة، وفكرة القوة الصناعية النافعة، وتجتمع القوتان في عنصر الحديد الذي يتكون منه السيف؛ يقول الله - عزّ وجل: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾. و﴿فيه بأس شديد﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع وغيرها ﴿ومنافع للناس﴾ أي في معايشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والآلات الزراعية وغيرها من الصناعات الحديدة.

وهكذا اجتمعت في علم وشعار المملكة العربية السعودية الذي اختاره الملك عبدالعزيز - بناء على فكر سياسي شديد الوضوح - مفاهيم قيمة تعبّر عن سياسة الدولة الإسلامية:

- مفهوم المنهج: توحيد الله - عزّ وجل - واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.
- مفهوم الجماعة الواحدة الملتقية على الثوابت، التوحيد والاتباع.
- مفهوم الأخذ بأسباب القوة المادية: الزراعية والصناعية والعسكرية.
- مفهوم الاتصال التاريخي: فالراية التي تحمل الشهادتين هي الراية نفسها التي حملها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه - رضي الله عنهم أجمعين - ومن اتبعهم بإحسان في كل زمان ومكان إلى يوم يبعثون.
- مفهوم تبييت النية على الاستمرار في حمل الراية في المستقبل، فراية التوحيد ليست من الرايات التي تقبل التقييد والإزالة.
- مفهوم العالمية والإنسانية المجرد من العنصرية والمذهبية الطبقية فالله سبحانه وتعالى هو رب العالمين، ملك الناس، إله الناس والرسول عليه السلام هو رسول الناس أجمعين.

وبهذا وفق الملك عبدالعزيز كل التوفيق في إقامة وحدة مكينة وعلم متميز، وشعار فريد، ويعود ذلك إلى توفيق الله - عزّ وجل - أولاً، ثم إلى العديد من العوامل التي ساعدت على تحقيق هذا الإنجاز العظيم.

ويأتي في مقدمة هذه العوامل، اتباعه للمنهج المستقيم القائم على توحيد الله - عزّ وجل - والدعوة إليه، وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في كافة المجالات، فتوحيد الله - عزّ وجل - هو الغاية من وجود الإنسان.

وقد بيّن الملك عبدالعزيز ذلك المنهج عندما قال: «... إن الإسلام هو الوسيلة لسعادة الدنيا والآخرة... إن تقدم المسلمين ونهوضهم هو من الأمور التي ما برحنا ندعو إليها إن شاء الله... ولا نهوض للمسلمين بغير الرجوع إلى دينهم والتمسك بعقيدتهم الصحيحة والاعتصام بحبل الله، والطريق إلى ذلك واضح معبد لمن أراد سلوكه، وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالتوحيد الخالص من الشرك والبدع، والعمل بما يأمرنا به الدين؛ لأنه لا فائدة من قول بلا عمل...».

وقد تحدث عن هذا المنهج خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله - في كلمته أثناء افتتاح المؤتمر العالمي لتاريخ الملك عبدالعزيز مساء يوم الأحد الموافق ١٩ من ربيع الأول ١٤٠٦هـ/ غرة ديسمبر (كانون الأول) ١٩٨٥م الذي نظمته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، حيث قال: لقد عرّف نفسه - في إحدى خطبه الجامعة قائلاً: «... إنني أعمل جهد الطاقة في سبيل إعلاء كلمة الدين، وإحلال عقيدة السلف الصالح، لذلك فإنني مبشر أدعو لدين الإسلام ونشره، وإني داعية أدعو لعقيدة السلف الصالح، وهي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وليس أحد عندي من أن تجتمع كلمة المسلمين ويتحد شملهم ويعلو شأنهم.

ومن هذا المنطلق يشهد التاريخ أن تطبيق الشريعة الإسلامية كان مبدأ أساساً في حياته رحمه الله، وكانت كلمة «شرع الله» تهزه عندما يطلبها خصم من خصم أو يطرحها أي شخص للاحتكام في أمر من الأمور. وبذلك عرفت هذه البلاد تحكيم الشريعة الإسلامية الخالدة في الدقيق والجليل، وأصبحت مثالاً صادقاً في استتباب الأمن والاستقرار، فأمن الإنسان على نفسه وماله وعرضه، وأصبح المواطنون وغيرهم سواسية أمام شرع الله وحكمه، فالقوي هو الضعيف حتى يؤخذ الحق له، وصاحب الحق هو القوي دائماً، ومغتصب الحق هو الضعيف مهما كان مركزه ومكانته.

وبهذه النية الصادقة والالتزام المطلق بمنهاج الشريعة نظرياً وتطبيقاً توحدت المشاعر، وسادت الطمأنينة، وتحققت آمال هذه البلاد في كيان حقيقي صلب قام على وحدة القلوب والمشاعر بكل ما تحمله هذه الكلمة من قيم ومعان...».

سار على هذا المنهج المستقيم في عصر احتشدت فيه مغريات التجافي عن الإسلام؛ لأن صورة الحكم الإسلامي، كانت مهتزة في بعض الأذهان، بفعل أخطاء اقترفها المسلمون أنفسهم، ومن جراء الحملات الثقافية والفكرية والنفسية التي شنها أعداء الإسلام على قضية الحكم الإسلامي، والتي جاءت دخيلة على المجتمع الإسلامي المتمسك بعقيدته وشرعه السماوي العظيم.

وكانت النظريات السياسية الجديدة تفتن القادة والزعماء، فضلاً عن طبقات أخرى كثيرة، فجعلوها البديل الوحيد لحالة التخلف. والملك عبدالعزيز لم يكن غافلاً عن ذلك، لأنه كان قوي الإحساس، مدركاً ما يجري في عصره من تغيرات، ومن ثم فإنه كان يعرف أن صورة الحكم الإسلامي كانت مضطربة في أذهان كثير من الناس في الوقت الذي أصبح فيه الكثير من الزعماء والقادة صرعى للنظريات السياسية الجديدة وأسرارها التي كانت تنبع من فكر سياسي رائج في هذا العالم، وسائد في محيط الأفكار، وفي دوائر السلطة والحكم، الملك عبدالعزيز أعرض عنها لعلمه اليقيني بعدم صلاحيتها، وانتقد هذا الوضع بقوله: «إن بعض المسلمين - مع الأسف - لم يجدوا طريقة للتقدم في نظرهم إلا بتقليد الأجانب، ولكنهم لم يقلدوهم فيما ينفع بما كان سبب قوتهم ومنعتهم، بل قلدوهم فيما يسوغه دينهم من الأمور الأخرى، فقد مضى عشرات السنين على الذين يدعون الناس في السر والعلن بالقول والعمل لتقليد الأجانب ولكن.. من منهم عمل إلى اليوم إبرة أو صنع طيارة أو بندقية أو مدفعاً؟ لقد قلدوهم فيما يخالف أمور دينهم واكتفوا بذلك...».

وبهذه الكلمات الواعية أدرك الملك عبدالعزيز حالة الضعف التي يعانيها المسلمون في غياب المنهج الإسلامي الأصيل، وحلول التقليد الأعمى الذميم مكانه. والدين الإسلامي ينهى عن التقليد الأعمى والمحاكاة الظاهرة التي تعتمد على الظن والتوهم دون إعمال العقل لقوله تعالى: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ .. وقوله تعالى: ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾، وقوله تعالى: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾.

وبالاضافة إلى هذا المنهج الإسلامي الذي سار عليه الملك عبدالعزيز كان أيضاً يتمتع بمقومات القيادة العسكرية الناجحة. فقد أخذ بالعقيدة كمقوم روحي للقتال، لما للدين من قوة معنوية هائلة في نفوس المحاربين، ومدى تأثير هذه الروح في المحارب، حيث يتغلب بها على الخوف من الموت والشعور بالعاطفة الموحدة المشتركة، وروح الفريق الواحد، والثقة بأنه أقوى من خصمه الذي يقابله بدون عقيدة، والإيمان بالقضاء والقدر، وعدالة القضية التي يحارب من أجلها.

كما أنه أدرك أن الثقافة العامة لازمة من لوازم القيادة العسكرية الناجحة، حيث يسيطر القائد على مجموعة من الناس تختلف نزعاتهم وتتباين معارفهم، حيث يتعامل مع حلفاء وضد خصوم، مما يتطلب سعة الفكر ووفرة المعلومات، وقوة الشخصية. لذا واصل الاطلاع على الثقافة، ووقف على عادات القبائل وتقاليدها، فضلاً عن دراسته للمعارك، وتخطيطها وتاريخ القادة المسلمين الحافل بالإنجازات والبطولات في إعلاء كلمة الله وتحكيم شرعه المتين.

وبفضل من الله - عزّ وجل- ثم بفضل هذه الثقافة استطاع القائد أن يدعم شخصيته، ويرفع مستوى شعبه ويسير بجيشه لخوض غمار حرب تاريخية فاصلة لتوحيد شبه الجزيرة العربية.

وكان يقدر الموقف لأي معركة مقابلة، من حيث عامل الوقت والمسافة، ومقارنة القوات، وأخيراً الخروج بقرار المعركة السليم، وهو ما يسمى بالخطة عند المؤرخين. وكذلك كان يدرس عادات وتقاليد العدو وأسلوبه القتالي في تنفيذ تحركاته المسلحة، ونظام تغير التحرك، وكان لهذا التخطيط الحكيم أثره في تحقيق النصر والوصول إلى الهدف المطلوب.

ومن مقومات القيادة لديه التقويم الدقيق لجميع الأطراف العسكرية، حتى استطاع أن يضع كلا منها في المكان المناسب له، كما استوعب القواعد الأساسية للتكتيك الحربي، وهي المفاجأة وتركيز الجهود وتعاون كافة الأسلحة، والتحكم في عمليات القتال والمرونة في التخطيط والتنفيذ وسرعة الحركة خلال سير المعارك. ولقد أدرك أن قيادة الحرب الناجحة هي دراسة عملية ولياقة بدنية طول الحياة، فمارس ركوب الخيل والفروسية، وفنون الحرب والقتال بالسيف، وبهذا احتفظ بلياقته البدنية طول تاريخه العسكري، فاتسم بالنشاط والحيوية والشجاعة والحزم والحماس والإبداع الذاتي والقوة الدافعة وقوة الإرادة، وهي صفات كافية لإدراج اسمه بين قائمة القادة العظام في التاريخ.

كما أدرك قيمة العنصر البشري في تقرير النصر أو الهزيمة في المعارك الحربية، فأقبل على دراسة أفكار جنده واتجاهاتهم الفكرية والنفسية، وعمل على زيادة كفاءتهم القتالية بمختلف الأساليب المشروعة، فقد كان خبيراً بالعواطف والأساليب التي تؤثر في نفوس الرجال واتجاهاتهم.

وكان يقدر الروح المعنوية العالية، لما لها من تأثير في الميزان العسكري أثناء المعارك. لهذا كان يدعو قواته إلى التعاون والتماسك والمحبة ويبصرهم بمهامهم وأهدافهم، ويبث فيهم روح الاعتزاز بدينهم، والاستعداد للتضحية من أجله، ويقنعهم بعدالة قضيتهم، فاستقطب محبتهم، مما جعلهم يحاربون تحت لوائه بروح عالية يحدوهم الأمل الكبير في النصر ومواجهة كافة الصعاب بعزيمة صادقة وإيمان كامل بأن الله - عزّ وجل - سوف ينصرهم.

وكان له من الخصائص والصفات والمميزات ما جعله يعمل أكثر من ذلك في سبيل خدمة الدين والوطن. فقد كان رجلاً مؤمناً بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، مؤمناً بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، واثقاً بالله - عزّ وجل - معتمداً عليه في جميع الأمور، مؤمناً بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، واثقاً بالله - عزّ وجل - معتمداً عليه في جميع الأمور، سمحاً كريماً محباً لشعبه، عالماً بجميع الأمور وازناً لها، بصيراً بها، ملماً بكل صغيرة وكبيرة في مملكته، عارفاً بأحوال البلاد العربية والإسلامية معرفة دقيقة، خبيراً بالسياسة الاستعمارية، فلا تنطلي عليه حيلة من حيلها. وإلى جانب هذا كله. كان مفكراً جريئاً وبطلاً شجاعاً، قوي الإرادة والإدراك، عادلاً في قوله وعمله، عطوفاً على شعبه، كعطفه على أهل بيته، شديداً على أهل البغي والفساد، لا تأخذه في الله لومة لائم، وفياً للأصدقاء وباراً بالأقرباء، حكيماً في تصرفاته، وغير ذلك من الصفات.

هذه هي أهم العوامل التي ساعدت الملك عبدالعزيز على بناء الدولة: منهج قويم ... وقيادة حكيمة ... وصفات فريدة، فكانت وحدة متينة في موقع متميز.

ففي هذه البلاد يوجد أول بيت وضع للناس لقوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾، ومنها اصطفى الله - عزّ وجل - محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً وهادياً، وفيها هبط الوحي بلغة أهل هذه البلاد، أغنى اللغات مادة وأوسعها أفقاً، وأعلاها شأناً، وزاد من غناها وثروتها وتثبيت أركانها لقوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾.

وإلى هذه البلاد يتجه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وفي كل مكان من المعمورة في صلاتهم خمس مرات في اليوم حيث توجد قبلتهم، كما يوجد فيها مواطن زيارتهم وعمرتهم وحجهم - الحرمان الشريفان والأماكن المقدسة - هذا بالاضافة إلى العديد من المميزات الأخرى.

وقد قدر الملك عبدالعزيز كل ذلك؛ يقول في الخطبة التي ألقاها أثناء حفلة خريجي المعهد السعودي عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م: «... بعث صفوة الخلق - اللهم صل وسلم عليه - من العرب، ونزل عليه من السماء في بلاد العرب، بقرآن غير ذي عوج. فلنعرف قدر ذلك، ولنحتفظ بديننا ولغتنا وبلادنا، ولنحبها حباً جماً...».

ويقول في مناسبة أخرى في ١٦ من المحرم ١٣٥١هـ/ ٢٢ من مايو (أيار) ١٩٣٢م: «... إن أول شيء نحافظ عليه، ونعض عليه بالنواجذ، ونحارب دونه لو أجمع أهل الأرض - هو ديننا ووطننا، وهذان الأمران لا نقبل فيهما قولاً ولا صرفاً ولا عدلاً ولا هوادة. إننا نبذل النفس والنفيس دونهما؛ لأنهما عظيمان عندنا، ولا يمكن أن نتخلى عنها قيد شعرة».

لقد بنى الملك عبدالعزيز الوحدة وحافظ عليها، وعمل على تنميتها بكل الوسائل الممكنة وفقاً للظروف والامكانات المتاحة في ذلك الوقت، بما يتفق وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وقد وفق في ذلك كل التوفيق.

وقد تزامن هذا الإنجاز الرائد العظيم مع تصاعد حركة الاستعمار في البلاد المجاورة، حيث كان في أوج قوته وجبروته، وكانت البلدان تتساقط عند قدميه كأوراق الحريق، وكانت طائراته وأساطيله ودباباته وجيوشه وتقنيته وعلمه قوى ضاربة في أعماق الأرض، إلا هذه الأرض المباركة التي سخر الله - عزّ وجل - لها باني هذه الوحدة، فاستطاع بفضله - عزّ وجل - حمايتها وتجنيبها الأطماع الاستعمارية بأشكالها المختلفة القائمة في البلدان المختلفة القائمة في البلدان المختلفة، بما امتاز به من شخصية عظيمة لها مكانتها المرموقة في الأوساط السياسية.

وبهذا نستطيع القول: إن وطناً قوامه التلاحم والتراحم والعطاء والالتزام بالشريعة الإسلامية الخالدة، والغيرة على العقيدة والمقدسات والوطن، والتفاني والتضحية من أجل خدمة الدين والوطن والسعي الدؤوب لدعم مواقف الأمتين العربية والإسلامية، ونصرة الحق والاستقرار والسلام والعدل في كل مكان، إن وطناً بهذه الخصائص والمميزات ليستحق أن يكون الكيان المثالي القوي في عالم ينوء بالصراعات والأحقاد، وبالعديد من المتغيرات.